سرُّ النُّبوغ في الأدب[١]

لو ترجمنا الخاطرة الَّتي تمرُّ في ذهن الحيوان الذَّكيِّ حين ينقاد في يد رجلٍ ضعيفٍ أبله ، يُصرِّفه ، ويُديره على أغراضه ، فنقلناها من فكر الحيوان إلى لغتنا ، وأدَّيناها بمعنى ممَّا بين الإنسان ، والحيوان ؛ لكانت في العبارة هكذا : ما أنت أيُّها الأبله فيما بيني وبين الحقيقة المدبِّرة لِلْكَوْن إلا نبيٌّ مرسلٌ صلى الله عليك وسلَّم . . . ذلك : أنَّ التَّركيب الَّذي يَبْيَنُ به الإنسان من الحيوان قد جعل دماغ هذا الحيوان خاتماً من الله ، دمغ به على خصائصه ، فأفرغه الله في جلده ، ووضع في رأسه ذلك العقل الإلـٰهيَّ ؛ الَّذي حبسه في باب الاضطرار من غرائزه البهيميَّة ، وأقفل به على الدُّنيا العقليَّة ، المتَّسعة بينه وبين الإنسان ، فالكون عنده لغوٌ كلُّه ، ليس فيه إلا حقائق يسيرةً ، ثمَّ لا تفسير لهذه الحقائق إلا من طبيعته هو ، فجلده أدقُّ تفسيرٍ فلكيٍّ . . . للشَّمس ، والنُّور ، والهواء ، وما يجيءُ منها ، وجوفه أصحُّ تعبيرٍ جغرافيٍّ . . . للكرة الأرضيَّة ، وما تحمل . وجوعه وشبعه هما كلُّ فلسفة الشَّرِّ ، والخير في العالم ! .

فأساس الذَّكاء عالياً ، ونازلاً هو التَّركيب الطَّبيعيُّ لا غيره ، لو زادتْ في الدِّماغ ذرَّةٌ ، أو نقصت ؛ لزادت الدُّنيا صورةٌ ، أو نقصت ، فبالضَّرورة للكون هذه هي القاعدة فيما نرى من تباين حدَّة الذَّكاء في أفراد كلِّ نوعٍ من الحيوان ، وما نشهد من ذلك في أحوال النَّاس ، من الفطنة ، إلى الذَّكاء[٢] إلى الألمعيَّة[٣] إلى الجهبذة[٤] ، إلى النُّبوغ ، إلى العبقريَّة . وهي طبقاتٌ من ألفاظ اللُّغة لأحوالٍ قائمةٍ من هذه المعاني ، ترجع إلى درجاتٍ ثابتةٍ في تركيب الدِّماغ .

---

(١) المقتطف : يناير سنة (١٩٣٣) . (س) .

(٢) عندنا : أنَّ الفطنةَ في اللغة ، دون الذَّكاء ، تقابل ما عند الحيوان من التَّنبُّه ، والذَّكاء ، والتوقُّد ، واللَّهيان . (ع) .

(٣) « الألمعيَّة » : الألمعيُّ : الذَّكيُّ ، المتوقِّد ، الصَّادق الفِراسة .

(٤) « الجهبذة » : الجِهْبذُ : النَّقاد الخبير بغوامض الأمور .

وممَّا يسجد له العقل الإنسانيُّ سجدةً طويلةً ، إذا هو تأمَّل في حكمة الله ، ومرَّ يتصفَّح من أسرار ما نحن بسبيله من الكلام على النُّبوغ : أنَّ هذا الوجود الَّذي يحمل أسرار الألوهيَّة هو كرةٌ متقاذفةٌ في الفضاء الأبديِّ ، وأنَّ الأرض الَّتي تحمل أسرار الإنسانيَّة ، هي كرةٌ طائرةٌ فيما مُدَّ لها من الوجود ، وأنَّ كلَّ حيٍّ فيها يحمل أسرار حياته في كرةٍ خاصَّةٍ به هي رأسه ، وأنَّ الوجود من كلِّ حيٍّ هو بعد ذلك ليس شيئاً في النَّظر ، ولا في الحسِّ ، ولا في الفهم إلا كما يُرى ، ويُحَسُّ ، ويُفهم في هذا الرَّأس بعينه على طريقته ، وتركيبه ، فيصعد التَّدريج إلى الكبير ، إلى الأكبر ، وينزل إلى الصَّغير ، إلى الأصغر ، ثمَّ لا معنى لما صعِد إلا ممَّا نزل ، وبهذا ستكون آخرة جميع العلوم متى نفذ العلماء إلى السِّرِّ الحقيقيِّ : أنَّ العقل الإنسانيَّ فهم كلَّ شيءٍ ، ولم يفهم شيئاً .

والنَّاس يختلفون بتركيب أدمغتهم على شبيهٍ من هذا التَّدريج ؛ فأمَّا واحدٌ ؛ فيكون دماغه باعتباره من سائر النَّاس في الذَّكاء ، والعقل ، كالوجود المحيط ، وأمَّا آخر ، فكالشَّمس ، ثمَّ غيرهما كالأرض ، ثمَّ الرَّابع كالإنسان ، ثمَّ يكون منهم كالحيوان ، ومنهم كالحشرة ؛ ولا علَّة لكلِّ هذا إلا ما هيَّأت الأقدار « بأسبابها الكثيرة » لكلِّ إنسانٍ في تركيب دماغه في نوع المادَّة السِّنجابيَّة من المخِّ ، وأحوالِ التَّركيب في الملايين من الخلايا العصبيَّة ، وما لا يعدُّ من فروع هذه الخلايا ، وشُعَبها ؛ ثُمَّ ما يكون من قِبل العلاقات بين هذه الفروع الَّتي هي لكلِّ رأسٍ كرمْل الكرة الأرضيَّة ، ثمَّ اختلاف مقادير الموادِّ الكيماويَّة الَّتي تتخلَّق في غدد الجسم ، وتنفثُها الغدد في الدَّم .

فقد يكون العمل النَّابغ المتمرِّد على العقول آتياً من قطرةٍ في هذه الغدد ، كما ينبعث العملاق المارد بعظامِه الممتدَّة ، وألواحِه المشبوحة ، من غدَّته النُّخاميَّة ، لا غيرها .

فالذَّكيُّ مِنْ ذَكيٍّ مثله إنَّما هو كالجيش من جيش بإزائه : يقع الاختلاف بينهما فيما اشتملا عليه من كثرة الجند ، وصفاتهم من القوَّة ، والضَّعف ، وأحوالهم من النِّظام والاختلال ، وقوَّة آلاتهم ، ومقدارها ، ونوع الاختراع فيها ، ثمَّ طبيعة موضعهم ، وحسن توجيههم وقيادتهم ، وما اكتنفهم من صعبٍ ، أو سهلٍ ، وما تظاهر عليهم من الحوادث ، والأقدار ، ثمَّ التَّوفيق الَّذي لا حيلة فيه إن وقع في

حصَّة أحدهما ، واستقرَّ ، أو وقع هَوناً ، وطار للآخر ؛ وبنحوٍ من هذا كلِّه تكون المفاضلة إذا وازنتَ بين اثنين من النَّوابغ في حقيقة نبوغهما .

فالنَّابغة خَلقٌ من خالِقه ، يُصنع كما ترى بأقدار الله ؛ إذ هو قدرٌ على قومِهِ ، وعلى عصره ، وهو من النَّاس كالورقة الرَّابحة من ورق السَّحب (اليانصيب) سلَّة يدٍ جعلتْها مالاً ، وتركت الباقيات ورقاً ، وأحدثتْ بينهما الفرقَ الذَّهبيَّ ، وبهذا لا يستطيع العالم أن يزيد الدُّنيا نابغةً إلا إذا استطاع أن يزيد في الكواكب نجماً ، فيصنعُهم ، وهبه صنَعهُ من الكهرباء ، فيبقى أن يحمله ، وإذا حمله ؛ بقي أن يرفعهُ إلى السَّموات ؛ وهبهُ قد رفعه ، فيبقى كلُّ شيءٍ . . . يبقى عليه أن يُقحمَه في النُّجوم ، ويرسله فيها ، يدور ويتفلَّك .

وكما يُخلق النَّابغة بتركيبه ، تُخلق له الأحوال الملائمة لعمله ؛ الَّذي خُصَّ به في أسرار التَّقدير عاملاً نافعاً ، وإن كانت لا تلائمه هو منتفعاً ؛ فإنَّه هو غير مقصودٍ إلا من حيث : أنَّه وسيلة ، أو آلةٌ تكابِد ما تحتمل في أعمالها ، ويؤتى لها لتأخذ على طريقةٍ ، وتعطي على طريقةٍ ؛ وبذلك يرجع التَّقدير إلى أن يكون العقل النَّابغة دليلاً للنَّاس من النَّاس أنفسهم على الخالق الذي هو وحده أمرُه الأمر .

وإذا كان الجمال يستعلن في كلام هؤلاء النَّوابغ ، والخيال يظهر في تعبيرهم ، والحكمة تهبط إلى الدُّنيا في تفكيرهم ، والمثل الأعلى هم الدَّاعون إليه ، والأشواق النفسيَّة هم موقظوها ، والعواطف هم المصوِّرون لها ، وسرور الحياة هم الَّذين حوَّلوه إلى الفنِّ . إذا كان هذا كلُّه ؛ فهذا كلُّه إنَّما هو توكيدٌ لاتِّصالهم بالقوَّة الأزليَّة المدبِّرة ، وأنَّهم أدواتها في هذه المعاني ؛ فما هي أعمالهم أكثر ممَّا هي أعمالها . وقد يظنُّ النَّاس أنَّ النَّابغة يلتمس القُوى المحيطة به ؛ ليبدع منها ، والحقيقة أنَّها هي تلتمسه ؛ لتُبدع به .

وبعدُ فالنَّابغة كأنَّه إنسانٌ من الفلك ، فهو يخزِّن الأشعَّة العقليَّة ، ويُريقها ، وفي يده الأنوار ، والظِّلال ، والألوان يعمل بها عمل الفجر كلَّما أظلمت على النَّاس معاني الحياة ، ولا تزال الحكمةُ تُلقي إليه الفكرة الجميلة ؛ ليعطيها هو صورة فكرتها ، وتوحي إليه معنى الحقِّ ؛ ليؤتيها هو معنى جمال الحقِّ ، والطَّبيعة خلقها الله وحدَه ، ولكنَّها ليست معقولةً إلا بالعلم ، وليست جميلةً إلا بالشِّعر ، وليست محبوبةً إلا بالفنِّ ؛ فالنَّوابغ في هذا كلِّه هم شروحٌ ، وتفاسيرُ حول كلمات

الله ، وكلُّهم يشعر بالوجود فنّاً كاملاً ، ويشعر بنفسه شرحاً لأشياء من هذا الفنّ ، ويرى معاني الطَّبيعة كأنَّما تأتيه تلتمس في كتابته وشعره حياةً أكبر ، وأوسع ممَّا هي فيه من حقائقها المحدودة ، وتتعرَّض له أحزان الإنسانيَّة ، تسأله أن يصحِّح الرَّأي فيها باستخراج معناها الخياليِّ الجميل ، فإنَّها وإن كانت آلاماً ، وأحزاناً إلا أنَّ معناها الخياليَّ هو سرورٌ تحمله للنَّاس ؛ إذا كان من طبيعة النَّفس البشريَّة أن تسكن إلى وصف آلامها ، وفلسفة حكمتها حين تبدو بصائرها حاملةً أثرها الإلـهيَّ ، كأنَّ المؤلم ليس هو الألم ، وإنَّما هو جهل سرِّه .

وبالجملة فالكون يختار في كلِّ شيءٍ مفسِّره العبقريَّ ؛ ليكشف من غموضه ، ويزيد فيه أيضاً . . . ثمَّ ليؤتَى النَّاسُ المثل الأعلى من المعنى على يد المثل الأعلى من الفكر ؛ ولهذا تصيب الكلام الَّذي يكتبه النَّابغة الملهَم في أوقات التَّجلِّي عليه كأنَّه صوَّر نفسه ، وصاغها ، أو كأنَّه قطعةٌ من الحسِّ قد جَمَدَت في أسطرٍ ، ولا بدَّ أن تشعرك الجملة : أنَّها قُذفت وحياً ؛ إذ لا تجدها إلا وكأنَّ في كلماتها روحاً يرتعش ؛ ولقد يخطر لي وأنا أقرأ بعض المعاني الجميلة لذهنٍ من الأذهان الملهَمة ، كشكسبير ، والمتنبِّي ، وغيرهما ـ حين أتأمَّل اختراع المعنى ، وإبداع سياقه ، وضُحى البيان عليه ، وإشراقه فيه ، وما أُتيح له من جلالٍ ظاهرٍ في شكل حيٍّ يلمح بسرِّه في النَّفس ـ يخيَّل إليَّ من ذلك أنَّ سرَّ الطَّبيعة القادر يعمل عمله أحياناً بذهنٍ إنسانيٍّ ؛ ليخلق تعبيراً عن جلاله في مثل جلاله .

وأنت فلو أخذت معنىً من هذه المعاني الآتية من الإلهام وأجريتَه في كتابة كاتبٍ ، أو شعر شاعرٍ من الَّذين ليس لهم إلا أذهانهم يكدُّونها ، وكتبهم يجعلونها أذهانهم أحياناً . . . لرأيت الفرق بين شيءٍ وشيءٍ في أحسن ما أنت واجدُه لهم على نحو ما ترى بين زهرةٍ حريريَّةٍ جاءت من عمل الإنسان بالإبرة والخيط ، وزهرة أخرى قد انبثقت عطِرة ناظرة في غصنها الأخضر من عمل الحياة بالسَّماء والأرض .

والعبقريُّ هو أبداً وراء ما لا ينتهي من جمالٍ أوَّله في نفسه ، وآخرُه في الجمال الأقدس ؛ الذي مسَح على هذه النَّفس الجميلة السَّامية ؛ فما دام فيه سرُّ العبقريَّة ، فهو دائبٌ يعمل ممزِّقاً حياته في سبحات النُّور تمزيقاً يجتمع منه أدبه ، وما أدبه إلا صورة حياته ؛ وهو كلَّما أبدع شيئاً ؛ طلب الَّذي هو أبدع منه ، فلا يزال متألِّماً إن عمل ؛ لأنَّ طبيعته لا تقف عند غايةٍ من عمله ، ومتألِّماً إن لم يعمل ؛ لأنَّ تلك

الطَّبيعة بعينها لا تهدأ إلا في عملٍ ، وهي طبيعةٌ متمرِّدةٌ بذلك الجمال الأقدس تمرَّد العشق في حامله ؛ إذ هما صورتان لأمرٍ واحدٍ كما سنشير إليه ؛ فكلُّ ما تجده في نفس العاشق المتدلِّه[١] ممَّا يترامى به إلى جنونه وهلاكه تجد شبهاً منه في نفس العبقريِّ ؛ فكلاهما قانونه من طبيعته وحدها ؛ إذ قد اتَّخذت حياته شكلها الفنِّيَّ من ذوقه هو وحده ؛ فليس يتبع طريقة أحدٍ ، بل هو طريقة نفسه[٢] ، وكلاهما مسترسلٌ أبداً إلى جمالٍ مستفيضٍ على روحه ، ويتقلَّب فيها باللَّذَّة ، والألم يرجع إليه ، ويستمدُّ منه ، وكلاهما لا يجد المعنى الجميل في الطَّبيعة معنىً ، بل رسولاً من الجمال ، أُرسِل إليه وحده ، ولا يزال يشعر في كلِّ وقتٍ : أنَّ له رسائل ، ورُسُلاً هو بعدُ في انتظارها ، وكلاهما متى ظفر بشيءٍ من مصدر الجمال انتهى من شدَّة فرحه إلى الظَّنِّ : أنَّه ربحَ من الكون ربحاً لم يكن له من قبلُ ، وكلاهما متهالكٌ بين قيود الحياة الَّتي في الحياة والواقع ، وبين حرِّيَّتها الَّتي في خياله وأمله ، كأنَّ عليه في سبيل هذه الحرِّيَّة أن يقطِّع اللَّيل ، والنَّهار ، لا قيداً من قيود الاجتماع ، أو العيش ؛ وكلاهما متَّصلٌ بقوَّةٍ غيبيَّةٍ وراء ما يُرى ، وما يُحسُّ تجعلُ نظرته في

---

(١) « المتدله » : تدلَّه : تحيَّر ، وذهب عقله .

(٢) لا وجه عندنا لما استعمله بعض الكُتَّاب في الأدب من قولهم : مدرسة امرئ القيس ، ومدرسة النَّابغة ، ونحو ذلك ، ترجمة حرفيَّة لقول الأوربيين : مدرسة فلان ؛ ومدرسة فلان ؛ فإنَّ الأدب إن كان تقليداً ؛ فهو أدبٌ منحطٌّ ، لا يجعل مدرسةً يحتذى عليها ، ويتخرَّج بها ، وإن كان إبداعاً ؛ فليس الإبداع مدرسةً تكون بالتَّعليم ، والتَّلقين ، ويتخرَّج بها الواحد والمئة والألف على طرازٍ لا يختلف ؛ إنَّما تنطبق هذه الكلمة على المذاهب المستقرَّة في الفنون التعليميَّة ، وفي هذا لا تطلق في الأدب العربيّ إلا على فئتين فقط ، هما البصريُّون والكوفيُّون ، على أنَّ كلمة مذهب هي المستعملة في هذا ، وهي أسدُّ منها ؛ إذ يدلُّ المذهب على منحىً اختاره الرَّأي وذهب إليه ، فكأنَّه عن تحقيقٍ في صاحبه ، وتابعيه ؛ أمَّا تسمية مجموعة الإلهامات الَّتي مرَّت في ذهن نابغة النَّوابغ بالمدرسة ، فتسميةٌ مضحكةٌ باردةٌ ؛ إذ الإلهام بصيرةٌ محصنةٌ ، وما هو ممَّا يقلَّد ، وقلَّما تشابه ذهنان على الأرض في عناصر التكوين الَّتي يأتي منها النُّبوغ ، وقد قال علماؤنا : طريقة فلانٍ ، وطريقة فلانٍ ، فالطَّريقة هي الكلمة الصَّحيحة ؛ لأنَّ عليها ظاهر العمل ، وأسلوبه يتوجَّه بها من يتوجَّه ، ويقلَّد فيها من يقلَّد ، أمَّا سرُّ العمل فهو سرُّ العامل أيضاً ، وهو شيءٌ في الرُّوح ، والبصيرة ، وهو في العبقريّ أمرٌ لا يستطيعه إنسانٌ ، وشذَّ في إنسانٍ بخصوصه . (ع) .

الأشياء خاضعةً لقانون النَّظرة العاشقة في العينين السَّاحرتين المعشوقتين ، فإذا مدَّ عينيه في شيءٍ جميلٍ ؛ فهناك سؤالٌ وجوابُه ، ووحيٌ وترجمتُه ، ومرورٌ من يقظةٍ إلى حلم ، وانتقالٌ من حقيقةٍ إلى خيالٍ ! .

غير أنَّ طبيعة العبقريِّ تزيد على كلِّ ذلك ألماً تنفرد به لا تستفزُّ معه على رضا ، ولا يبرَح يُسلِّط الإعنات[1] عليها ، ويستغرقها بالهموم السَّامية ، وذلك ألم الكمال الفنِّيِّ الَّذي لا يدرك العبقريُّ غايته عند نفسه ، وإن كان عند النَّاس قد أدرك غاياتٍ ، وغاياتٍ ، فطبيعة كلِّ عبقريٍّ تجهد جهدها في العمل ؛ لتخرج به ممَّا يستطيعه النَّاس ، فإذا تأتَّى صاحبها لذلك ، وكابد فيه ، وأدرك منه ، وبلغ وأعجز ، اندفعت طبيعته إلى الخروج ممَّا يستطيع هو . . كأنَّه خارجٌ عن الطَّبيعة وداخلٌ في الطَّبيعة في وقتٍ معاً . وكأنَّه نفسه ، وفوق نفسه في حالٍ ، وهذا سرُّ حرِّيَّته وسموِّه ، كما أنَّه سرُّ ألمه ، وحيْرته .

ومن أثر ذلك ما تحسُّه أنت إذا قرأت للأديب البليغ ، التَّامِّ ، صاحب الفكر ، والأسلوب ، والذِّهن الملهَم ؛ فإنَّك تقف على المعنى من معانيه يملأ نفسك ويتمدَّد فيها ، ويهتزُّ بها طرباً ، وإعجاباً ، فتقول : لا أحسنَ من هذا ! ثمَّ تؤمِّل مع ذلك أن تجد منه هو أحسن من هذا . . . كأنَّه وإن تناهى إلى الغاية لا يزال عندك فوق الغاية ، وهذا غريبٌ ، ولكن لا دليل على العبقريَّة إلا الغرابة دائماً ، فهي نظامٌ لا نظامَ فيه ؛ لأنَّها طريقةٌ لا طريقة لها ، وبهذه الغرابة جاءت العبقريَّة كلها أمثلة وليس فيها قواعد يُحتذى عليها ولا هداية فيها إلا من الرُّوح ، وإذا كان الفنُّ قدرةً متصرِّفةً في الجمال ؛ فالعبقريَّة قدرةٌ متصرِّفةٌ في الفنِّ ، والنَّابغة كالمتكيِّس[2] الَّذي معه قوى العقل ، ويريد أن يزداد على قدره منها ، ولكنَّ العبقريَّ كالإلـٰهيِّ الَّذي معه قوى الرُّوح ، ويريد أن يزيد النَّاس على قدرهم بها ، وذاك مرجعه الفكر الدَّقيق الباحث ، وهذا مناطه البصيرة الشَّفافة النَّافذة ، وهي أغرب الغرائب في الإنسان ؛ إذ هي الجهة المطلقة في هذا المخلوق المقيَّد ، وبها تتَّسع النَّفس لإدراك المطلق الظَّاهر من خلال الموجودات ، وفيها تتحوَّل الأشياء من نظام الحاسَّة إلى نظام الرُّوح ، فيُسمَع المرئيُّ ، ويُبصَر المسموع ، وتخلع الأجسام أنغاماً ، وتلبس

(١) « الإعنات » : أعنته : شدَّد عليه ، وألزمه ما يصعب عليه أداؤه ، وشقَّ عليه تحمُّله .
(٢) من الكيس ، وهو : العقل ، فيكون عاقلاً ، ويريد أن يزدادَ على مقداره . (ع) .

الأصوات أشكالاً ، ويبدو عندها كلُّ مخلوقٍ وكأنَّ فيه بقيَّةً زائدةً على خَلفه ، تركت ليعمل فيها الكاتب ، أو الشَّاعر المحدَّث[1] عمل فنِّه الزائد على الطَّبيعة بالحاسَّة الزَّائدة على ذهنه ، وهي الَّتي نسمِّيها : الإلهام .

هذه الحاسَّةُ هي كذلك من بعض الغرابة ، تكون في صاحبها الموهوب كما تكون حاسَّة الاتِّجاه في الطُّيور ؛ الَّتي تقطع في جوِّ السَّماء إلى غاياتها البعيدة من قطب الأرض إلى قطبها الآخر بغير دليلٍ تحمله ، ولا رَسْلٍ[2] تنظر فيه ، ولا علْمٍ ترجع إليه . وكما تكون حاسَّة التَّمييز في النَّحل ؛ الَّذي يبني عسَلته على هندسةٍ ليست من كتابٍ ، ولا مدرسةٍ ، وحاسَّة التَّدبير في النَّمل ؛ الَّذي يدبِّر مملكته بغير علوم المماليك ، وسياستها ، وكثيراً ما يجيء الأديب الملهَم من حقائق الفكر ، وبيانه ، وأسرار الطَّبائع ، وأوصافها بما يغطِّي على فلسفة الفلاسفة ، وعلم العلماء ، ومثل هذا العبقريِّ هو عندي فوق العلم ، لا أقول بدرجةٍ ، ولكن بحاسَّةٍ .

والإلهام يكوِّن لكلِّ عبقريٍّ ذهنه الَّذي معه ، وذهنه الَّذي ليس معه ، إذا كانت له وراء خياله قوَّةٌ غير منظورةٍ ليست فيه ، ومع ذلك تعمل كما تعمل الأعضاء في جسمه ، هيِّنةً منقادةً كأنَّها تتصرَّف على اطِّراد العادة بلا فكرٍ ، ولا رويَّةٍ ، ولا عسرٍ ما دامت تنجلي عليه .

وليست تتَّصل هذه القوَّة إلا بتركيبٍ عصبيٍّ تكون فيه الخصائص الَّتي تصلح أن تتلقَّى عنها ، وهي في العبقريين خصائص مرْضيةٌ في الأعمِّ الأغلب بل لعلَّها كذلك دائماً ، ليتسرَّ بها العبقريُّ لحالةٍ خفيفةٍ من الموت . . . يحمل بها كدَّه ، وتعبه ، وما يعانيه من مضض الفكر ، وثقلته ، ثمَّ لتكون هذه الحالة كالتَّقريب بين عالم

---

(١) هذه الكلمة القديمة التي تقابل ما نسمِّيه العبقري بلغة عصرنا ، كأنَّ الأشياء تحدِّثه بأسرار ، أو تحدِّثه بها قوَّةٌ أعلى من القوى الإنسانيَّة ، وإذا كان محدَّثاً ؛ فمعنى ذلك : أنَّه ينطق عن سمع من الغيب ؛ ومن ذلك ما زعم العرب من أنَّ لكلِّ شاعرٍ شيطاناً ينفث على لسانه ، وهو وصفٌ دقيقٌ للعبقريَّة إلا أنَّه باللُّغة الجاهليَّة ، وقد صحَّحه النَّبيُّ ﷺ ، فقال لشاعره حسَّان : قل وروح القدس معك ! وكلمة « روح القدس » تنطوي على فلسفة العبقريِّ كلِّها . (ع) .

(٢) « رَسْل » : هو القطيع من الإبل والغنم وغيرها .

الشَّهادة فيه وبين عالم الغيب منه ، فالتَّركيب العصبيُّ في دماغ العبقريِّ إنسانٌ على حياله مع إنسانٍ آخر ، أحدهما لما في الطَّبيعة ، والثاني لما وراء الطَّبيعة ، ومن ثمَّ كان الرَّجُل من هذه الفئة كالمصباح : يتَّقد ، وينطفئ ؛ لأنَّه آلة نور تَعرض لها العلل ، فتذهب بقدرتها عليه ، وتنضب مادَّة النُّور منها ، فكذلك لا تقدر عليه ، وتكون مضيئةً ، فتنطفئ بسببٍ ليس منها ، ولا من نورها ، وهي على كلِّ هذه الأحوال لا تملك منها حالةً ، فبينما العبقريُّ ؛ الَّذي يملأ الدُّنيا من آثاره النَّابغة تراه في حالةٍ من أحواله يدأب لا يأتلي[1] ، فيجدُّ في العمل ، ويبذل الوسع فيه ، ويصبر على مطاولة التَّعب في إحكامه ، ويفيض به فيضاً ، وكأنَّ في طبيعته الرَّبيع المتفتِّح طول أيَّامه بالجمال ؛ إذا هو في حالةٍ أخرى يتلكَّأ ، ويتربَّص ، لا يعمل شيئاً ، كأنَّما دخل في قريحته الشِّتاء ، وفي ثالثةٍ يتباطأ ، ويتلبَّث ، فلا يعنُّ[2] له من جديدٍ ، كأنَّما حُبس عنه فكرهُ ، أو نبا[3] طبعُه ، أو هو في قيظ طبيعته ، وخمولها ، وضجرها ، ثمَّ لا تمضي على ذلك إلا توَّةٌ ، وساعةٌ ؛ فإذا على صيفه هواء نوفمبر ، وديسمبر . . . وإذا هو منبعثٌ ملء القوَّة ، والنَّشاط ، وربَّما يأخذ في غرضٍ من الكتابة ، قد رسم له المعنى ، وهيَّأ له المادَّة ، فلا يكاد يمضي النحو منه حتَّى تتناسخ في ذهنه المعاني ، فإذا هو يكتب ما لا يشبه ما كان ابتدأ بِه ، ويأتيه غيرُ ما كان قد أراده ، كأنَّما يُلقى عليه ، فهو يستملي ؛ وقد يبتدئ معنى ، ثمَّ يُقطع عنهُ بطارئ من عملٍ ، أو حديثٍ ، ثمَّ يُعاوده ، فإذا معنىً آخر ، وإذا جهةٌ من الفكر هي جهة الإبداع ، والاختراع في موضوعه ، وإذا هو إنَّما كان يجُرُّ بذلك الصَّارف عن معناه الأوَّل جرّاً ؛ ليدعهُ إلى الأكمل ، والأصحِّ ، وأيقن : أنَّه لو كان استوفى على ما بدأ لأسفَّ ، وضعف ، وجاء ممَّا غيرُه أقدرُ عليه ، كأنَّ هذه القوَّة الخفيَّة الَّتي تلهمه تنقِّح له أيضاً بأساليبها الغريبة ؛ وقد يكون آخذاً في عمله ، ماضياً على طبعه ، مسترسلاً إلى ما ينكشف له من أسرار المعاني ، ثقِفاً مِن هنا ، لقِفاً من هناك[4] ثمَّ ينظر فإذا هو قد مُسح لوح خياله ، ويطلب المعنى ، فلا يُتاح له ،

(١) « يأتلي » : يُقصِّر ، ويُبطِئ .

(٢) « يعنّ » : يظهر ، ويعترض .

(٣) « نبا » : نفر .

(٤) يقال : هو ثَقِفٌ ، لقِفٌ : أي : سريع الفهم لما يُلقى إليه ، ولكنَّا استعملناه كما ترى=

ويتمادى ، فلا يزيد إلا كدّاً ، وعسراً كأنَّما ذهب إلهامه في غمضٍ من غموض الأبديَّة[(١)] . وكل من ارتاض بصناعة الفكر ، واستحكمت له عادتها ومرَّ في درجاتها حتَّى بلغ المكانة ؛ الَّتي يستشرف منها للإلهام ، ويتعرَّض فيها بروحه ، وبصيرته لنَبَضات الوحي ، وانكشافات الغيب ، يعلم : أنَّ كلَّ معنىً بديعٍ يأتي به في صناعته إنَّما يقع له إلهاماً من ذلك المعنى الحيِّ المتمدِّد في الكائنات كلِّها ظاهراً في شيءٍ منها بالضَّوء ، وفي أشياء بالألوان ، وفي بعضها بالحركة ، وفي بعضها بالانسجام ، وفي بعضها بالرَّوعة ، والفخامة ، وفي غيرِها بِنِصبة الهيئة ، وظاهراً في حالاتٍ كثيرةٍ بأنَّه غير ظاهرٍ ويَعرف كذلك : أنَّ هذا المعنى الشَّامل ؛ الَّذي لا يُحدُّ هو الَّذي ينقل الوجودَ كلَّه إلى نفوس النَّوابغ[(٢)] متى نبض في هذه النُّفوس الرَّقيقة ، وأشعرَها سرَّه ، وإذا همَّ النَّابغة أن يتوضَّحه لا يرى شيئاً ، وإذا أراد حجَّةً عليه ؛ لم يستطع الجلاءَ عن بيانه بكلمةٍ ، وإذا التمس التَّعريف به ؛ لم يجد إلا ما يشهد له إحساسه ، وقلبه ؛ وهذا الَّذي ينقدح في أذهان النَّوابغ أفكاراً حين يفيضُ لكلٍّ منهم بسببٍ من قراءةٍ ، أو مشاهدةٍ ، أو حالةٍ ، أو مِرَاسٍ ، هو هو بعينه الَّذي ينقدح عسفاً في قلوب المحبِّين حين يتراءى لكلٍّ منهم في معنى على وجهٍ جميلٍ ، ومن ثمَّ كان النَّابغة في الأدب لا يتمُّ تمامهُ إلا إذا أحبَّ ، وعشق ، وكان

= فجاء أشدَّ تمكُّناً من أصله . (ع) .

(١) قالوا : كان الفرزدق وهو فحلُ مضر في زمانه يقول : تمرُّ عليَّ السَّاعة وقلع ضرس من أضراسي أهون عليَّ من عمل بيتٍ من الشِّعر ! وذكروا : أنَّه كان من عمله إذا استصعب الشِّعر عليه أن يركب ناقته ، ويطوف وحده خالياً منفرداً في شعاب الجبال ، وبطون الأودية ، فينقاد له الكلام ، وأخبارهم كثيرةٌ في الطُّرق التي يستعان بها على الشِّعر ، ويجتلب بها نافره ، والحقيقة : أنَّها عللٌ من النَّفس تعارض حالة الإلهام إلى أن تزولَ ، وتصفو النَّفس منها ، أو أسبابٌ تتَّفق ، ولا تلهم شيئاً إلى أن تتغيَّر بأسبابٍ ملهمةٍ . (ع) .

(٢) هناك فرقٌ علميٌّ بين ما يسمَّى نبوغاً ، وما يسمَّى عبقريَّةً ، ولكنَّا في هذا الفصل أطلقنا الكلام ، وقيَّدنا في مواضع بخصوصها ، ويكاد الفرق بين النَّابغة والعبقريِّ في جماع أمره أن يكون كالفرق بين التِّلغراف ؛ الذي طريقه مادَّة السِّلك ، وبين الآخر ، الذي طريقه روح الجوِّ ، فكلاهما هو الآخر ، ولكن أحدهما لا بدَّ له من طريقٍ مسلوكٍ ، والآخر طريقه كلُّ الطُّرق ؛ أي : فوق أن يقيَّد بطريقةٍ . (ع) .

الأدب نفسه في تحصيل حقيقته الفلسفيَّة ليس شيئاً سوى صناعة جمال الفكر .

وهذا العمل في الجهاز العصبيِّ الخاصِّ به في بعض الأدمغة هو الَّذي كان يسمِّيه علماء الأدب العربيِّ بالتَّوليد ، وقد عرفوا أثره ، ولكنَّهم لم ينتهوا إلى حقيقته ، ولا أدركوا من سرِّه شيئاً ؛ وأحسن ما قرأناه فيه قول ابن رشيقٍ في كتاب العمدة : « إنَّما سمِّي الشَّاعر شاعراً ؛ لأنَّه يشعر بما لا يشعر به غيره ؛ فإذا لم يكن عند الشَّاعر توليد معنىً ، ولا اختراعُه ، أو استظراف لفظٍ ، وابتداعُه ، أو زيادةٌ فيما أجحف فيه غيره من المعاني ، أو نقصٌ ممَّا أطاله سواه من الألفاظ ، أو صرفُ معنىً إلى وجهٍ عن وجهٍ آخر ؛ كان اسم الشَّاعر عليه مجازاً ، لا حقيقةً ، ولم يكن له إلا فضل الوزن » . هذا كلام ابن رشيقٍ ، وليس لهم أحسن منه ، وهو مع ذلك تخليطٌ لا قيمة له ، وليس فيه من موضوعنا إلا لفظ التَّوليد .

وممَّا لا نقضي منه عجباً في تتبُّع فلسفة هذه اللُّغة العربيَّة العجيبة ، أنَّنا نرى أكثر ألفاظها كالتَّامَّة ، لا ينقصها شيءٌ من دقائق المعنى في أصل وضعها ، على حين لا يفهم علماؤها من هذه الألفاظ إلا بعض ما تدلُّ عليه ؛ كأنَّها منزَّلةٌ تنزيلاً ممَّن يعلم السِّرَّ ؛ وقد نبَّهنا إلى هذا في كتابنا (تاريخ آداب العرب) وأفضنا فيه ، واستوفينا هناك من فلسفته ، وجاء القرآن الكريم من هذا بالعجائب ؛ الَّتي تفوق العقل ، حتَّى إنَّ أكثر ألفاظه لتكاد تكون مختومةً ، نزلت كذلك لتفضَّ العلوم ، والفلسفة خواتمها في عصورٍ آتيةٍ لا ريب فيها[1] ؛ وكلمة التَّوليد الَّتي لم يفهم منها العلماء إلا أخذ معنىً من معنى غيره بطريقةٍ من طرق الأخذ الَّتي أشاروا إليها في كتب الأدب ؛ هي الكلمة التي لا يخرج عنها شيءٌ من أسرار النُّبوغ ، ولا تجد ما يسدُّ في ذلك مسدَّها ، أو يحيط إحاطتها ، ولا نظنُّ في لغةٍ من اللُّغات ما يشبهها في هذه الدَّلالة ، واستيعابها كلَّ أسرار المعنى ؛ إذ هي بلفظها نصٌّ على حياة الكون في الذِّهن الإنسانيِّ ، وأنَّه يتَّخذه وسيلةً لإبداع معانيه ، كما يتَّخذ سرُّ الحياة بطنَ الأمِّ وسيلةً لإبداع موجوداته ؛ وأنَّ المعاني تتلاقح فيلد بعضها بعضاً في أسلوبٍ من

---

(١) على هذا المعنى ، وكشف أسراره في آيات القرآن سيبنى كتابنا الجديد : « أسرار الإعجاز » . (ع) .

قلتُ : وانظر خاتمة كتابنا : « حياة الرَّافعي » . (س) .

الحياة ، وأنَّ هذه وحدَها الطَّريقة لتطوُّر الفكر ، وإخراج سُلالاتٍ من المعاني بعضها أجمل من بعض ، كما يكون مثل ذلك في النَّسل بوسائل التَّلقيح من الدِّماء المختلفة ، وأنَّ النُّبوغ ليس شيئاً إلا التَّركيب العصبيَّ الخاصَّ في الذِّهن ، ثمَّ نموّ هذا التَّركيب مع الحياة في طريقةٍ سواءٍ هي وطريقة الولادة المُحيية الَّتي مرجعُها كذلك إلى تركيبٍ خاصٍّ في أحشاء الأنثى : ينمو ، ثمَّ يدرك ، ثمَّ يعمل عمله المعجز ، وإذا كان من كلِّ شيءٍ في الطَّبيعة زوجان ، فالكلمة نصٌّ على أنَّ أذهان النَّوابغ أذهانٌ مؤنَّثة في طباعها التي بنيت عليها ؛ وهذا صحيحٌ ؛ إذ هي أقوى الأذهان على الأرض في الحسِّ بالآلام ، والمسرَّات ، ومعاني الدُّموع ، والابتسام أسرع إليها من غيرها ، بل هي طبيعةٌ فيها ؛ وهي وحدها المبدعة للجمال ، والمنشئة للذَّوق ، وعملها في ذلك هو قانون وجودها ؛ ثمَّ هي قائمةٌ على الاحتمال ، والإعطاء ، والرِّضا بالحرمان في سبيل ذلك ، وإدمان الصَّبر على التَّعب ، والدِّقَّة ، والاهتمام بالتَّفاصيل ، وأساسها الحبُّ ؛ وكلُّ ذلك من طباع الأنثى ، وهي النَّابغة فيه ، بل هي النَّابغة به .

فَسِرُّ النُّبوغ في الأدب ، وفي غيره هو التَّوليد ، وسرُّ التَّوليد في نضج الذِّهن المهيَّأ بأدواته العصبيَّة ، المتَّجهة إلى المجهول ومعانيه ، كما تتَّجه كلُّ آلات المرصد الفلكيِّ إلى السَّماء ، وأجرامها ، وبذلك العنصر الذَّهبيِّ يزيد النَّابغة على غيره ، كما يزيد الماس على الزُّجاج ، والجوهر على الحجر ، والفولاذ على الحديد ، والذَّهب على النُّحاس ؛ فهذه كلُّها نبغت نبوغها بالتَّوليد في سرِّ تركيبها ، ويتفاوت النَّوابغ أنفسهم في قوَّة هذه الملكة ، فبعضهم فيها أكمل من بعضٍ ، وتمدُّ لهم في الخلاف أحوال أزمانهم ، ومعايشهم ، وحوادثهم ، ونحوها ، وبهذه المباينة تجتمع لكلٍّ منهم شخصيَّةٌ ، وتتَّسقُ له طريقةٌ ؛ وبذلك تتنوَّع الأساليب ، ويعاد الكلام غير ما كان في نفسه ، وتتجدَّد الدُّنيا في ذهن كلِّ أديبٍ يفهم الدُّنيا ، وتتَّخذ الأشياء الجارية في العادة غرابةً ليست في العادة ؛ ويرجع الحقيقيُّ أكثر من حقيقته .

وقد سئل مصوِّرٌ مبدعٌ : بماذا يمزج ألوانه ، فتأتي ، ولها إشراقُها ، وجمالُها ، ونبوغُ مبانيها ، وزَهْوُ الحياة في الصُّورة ؟ فقال : إنَّما أمزجها بمخِّي . وهذا هذا ، فإنَّ الألوان عند النَّاس جميعاً ، ولكن مخُّه ، وعنده وحدَه ، وله تركيبه الخاصُّ به وحدَه ، وسرُّ الصِّناعة في توليد هذا الدِّماغ ، فكأنَّ ألوانه في صناعته

جاءت منه بخصوصه ، وكذلك كلُّ ما يتناوله العبقريُّ فإنَّك لتجد الشِّعر في وزنٍ خاصٍّ به ، يدلُّ عليه ، ويتمِّم الغرض منه ، ويضيف إلى معانيه أُنُفاً[1] من الجمال وحسنه ، وإلى صوته نغماً من الموسيقا ، وطربها . فما أشبه الجهازَ العصبيَّ في دماغ كلِّ نابغةٍ أن يكون وزناً شعريّاً لهذا النَّابغة بخاصَّته . ألا ترى أنَّك لا تقرأ الأديبَ الحقَّ إلا وجدتَ كلَّ ما يكتبه يجيء في وزنٍ خاصٍّ به ، حتَّى لا يخرج عنه مرَّةً ، أو تزيد أنت فيه ، وتنقص إلا ظهر لك أنَّه مكسورٌ ؟ .

والذِّهن العبقريُّ لا يتَّخذ المعاني موضوع بحثٍ ، ونظرٍ ، وتعقُّبٍ يستخرج منها ، أو يتعلَّق عليها ، فهذا عمل الذِّهن الذَّكيِّ وحدَه ، وهو غاية الغايات فيه ، يبحث ، وينظر ، ويتصفَّح ، ويجمع من هنا ، ويأخذ من ثمَّ ، ويعترض ، ويصحِّح ، ويأتيك بالمقالة ، يحسب فيها كلَّ شيءٍ ، وما فيها إلاَّ أشياؤه هو ، وأمثاله . أمَّا الذِّهن العبقريُّ ؛ فليس له من المعاني إلا مادَّة عملٍ ، فلا تكاد تلابسه حتَّى تتحوَّل فيه ، وتنمو ، وتتنوَّع ، وتتساقط له أشكالاً ، وصوراً في مثل خطرات البرق ، وربَّما غمر المعنى الواحد في جماله ، وسموِّه ، وقوَّة تأثيره مقالاتٍ عدَّةً لأولئك الأذكياء ، فنسخها نسخاً ، وجعلها منه كالشُّموع الموقدة بإزاء الشَّمس ، فإذا ذهبتَ توازن بين مثل هذا المعنى ، ومثل هذه المقالات في الرَّوعة ، والجلال ، ورأيت عربدة المقالة ، وغرورها ؛ لم تستطع إلا أن تقول لها : يا حصاة الميزان في إحدى كِفَّتيه ! ألا يكفيك الجبل في الكِفَّة الأخرى ؟ .

وقد عرف الأدباء جميعاً أنَّ كاتب فرنسا العظيم أناتول فرانس كان يكتب الجملة ، ثمَّ ينقِّحها ، ثمَّ يهذِّبها ، ثمَّ يعيدها ، ثمَّ يرجع فيها ، وهكذا خمس مرَّاتٍ إلى ثمانٍ ، ويقدِّم ، ويؤخِّر من موضعٍ إلى موضعٍ ، ويحتسبون هذا تحكيكاً ، وتهذيباً ، وما هو منها في شيءٍ ، ولا أحسب الأوربيِّين أنفسهم تنبَّهوا إلى سرِّ هذه الطَّريقة ، وإنَّما سرُّها من جهاز التَّوليد في رأس ذلك الكاتب العظيم ، فإذا قرأ كتابةً حولها فكرةً ، وأبدع له منها من غير أن يعمل في ذلك ، أو يتكلَّف له إلا ما يتكلَّف من يُهَزُّ إليه بجذع الشَّجرة ؛ لتساقط عليه ثمراً ناضجاً حلواً جنيّاً . فكلَّما قرأ ؛ ولَّد ذهنه ، فيثبت ما يأتيه ، فلا تزال صورةٌ من صورةٍ حتَّى يجيء

(١) « أنفاً » : الأُنُف : الرياض التي لم يرعها ، أو يطأها أحد .

المعنى في النِّهاية ، وإنَّه لأغرب الغرائب لا يكاد العقل يهتدي إلى طريقته ، وسياق الفكر فيه ؛ إذ كان لم يأتِ إلا محوَّلاً عن وجهه مرَّاتٍ لا مرَّةً واحدةً .

فجهاز التَّوليد متى استمرَّ ، واستحكم في إنسانٍ أصبح له بمقام ملَك الوحي من النَّبيِّ ، وهو عندنا دليلٌ من أقوىٰ الأدلَّة على صحَّة النُّبوَّة ، وحدوث الوحي ، وإمكانه ؛ إذ لا تصرف به إلا قوَّةٌ غيبيَّةٌ لا عمل للإنسان فيها ، بل هي تبدع إبداعها ، وتلقي عليه إلقاءً . وليس كلُّ من تعرَّض لها أدرك منها ، ولا كلُّ من أدرك منها بلغ بها ، بل لا بدَّ لها من الجهاز العصبيِّ المحكم كجهاز اللاسلكي الدَّقيق المصنوع لتلقِّي أبعد الأمواج الكهربائيَّة ، وأقواها . وهذه القوَّة إن أرادت معاني الجمال ؛ أخرجت الشَّاعر ، وإن أرادت كشف السِّرِّ عن الأشياء ؛ أخرجت الأديب ، وإن أرادت حقائق الوجود ؛ أخرجت الحكيم . فإنْ كان الأمر أكبر من هذا كلِّه ، وكان أمر تغيير الحياة ، وصبَّ أزمان جديدةٍ للإنسانيَّة ، والوثوب بهذه الدُّنيا درجةً ، أو درجاتٍ في الرُّقيِّ ، فهنا تكون الوسيلة أكبر من البصيرة ، فليس لها من قوَّة الغيب إلا الوحي ، ويكون الغرض الأكبر من الشَّاعر ، والأديب ، والحكيم ، فلا يُختار إلا النَّبيُّ . ثمَّ لا يوحى إليه إلا وهو في حسٍّ لساعة الوحي وحدَها ، وهي ساعةٌ ليست من الزَّمن ، بل من الرُّوح المنصرف عن الزَّمن ، وما فيه ليتلقَّى عن روح الخُلد . وقريبٌ من ذلك خلوة النَّابغة بنفسه في ساعة التَّوليد ، فسرُّ النُّبوغ من سرِّ الوحي ، لا ريب في ذلك ، وما أسهل سرّ الوحي ، وأيسر أمره ، ولكن في الأنبياء وحدهم ، وهنا كلُّ الصُّعوبة . . « أن نكون ، أو لا نكون ، هذه هي المسألة » .

* * *